

أثر علمي التدوين والتوثيق في الحضارة الإسلامية

- قراءة لدورها في حفظ التراث الشفهي -

د. مبارك بشير

المركز الجامعي تيبازة

ملخص:

التراث الإسلامي هو نتاج العقل البشري المسلم بدأ مع تدوين العلوم في بلاد الإسلام، جعل لنفسه محورا هو النص الديني، فوجوده اقتضى مسألة التوثيق للمحافظة عليه دون أي تغيير، وحتى يصل إلى الأجيال صحيحا يحتاج ذلك إلى التدوين والتوثيق لأن الرواية الشفهية عرضة للتغيير والتبديل، وهذا ما تستوضحه ورقتي البحثية هذه.

الكلمات المفتاحية :

- التراث الإسلامي؛ السنة؛ القرآن الكريم؛ توثيق المصدر؛ منهج التوثيق؛ الكلمة الشفهية؛ الكلمة المدونة؛ الإسناد.

- Summary:

Islamic heritage is the product of the human mind of Muslim, its began with the notation of science in the country of Islam, this heritage has made Itself an axis of religious text, his presence required the issue of documentation, and to preserve it without any change, and to arrive true to the generation we must be codified and documented; So that's what this research paper will explain .

_ Keywords:

Islamic heritage; Sunnah; The Holy Quran; Source Documentation; Authentication Metthodology; Oral statement; The Word Blog; Attribution

01- المقدمة:

التراث الإسلامي نتاج العقل البشري المسلم بدأ مع تدوين العلوم عند المسلمين الأوائل أواخر القرن (02 هـ / 08 م) جعل لنفسه محورا النص الديني - الكتاب والسنة - أي النص بما اشتمل من أحكام ومقاصد شرعية جعله المسلمون محورا لحضارتهم يرجعون إليه كلما احتاجوا إليه فوظفوا علوما كثيرة لخدمته كعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، وعلم النحو⁽¹⁾، وغيرها من العلوم⁽²⁾

لقد اقتضى وجود النص مسألة التوثيق⁽³⁾، فالتوثيق هو السؤال الأول الذي يطرح نفسه على الإنسان الذي يسعى إلى معرفة الحقيقة، على نصوص السنة والقرآن التي بين أيدينا هي التي نطق بها الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ومن أجل إيجاد إجابة لهذا السؤال وجد ما يقارب عشرين علما تتعلق بعلم الرجال، وعلم الأسانيد، وعلوم مصطلح الحديث. إذن لا يوجد كتاب على وجه الأرض له تلك الأسانيد المتصلة، فالنقل عند المسلمين ليس عن شخص واحد يمكن أن يكذب ويمكن أن يخطئ⁽⁴⁾.

اعتبارا لذلك كان موضوع التدوين والتوثيق هو محور ورقتي البحثية الموسومة بـ: "أثر علمي التدوين والتوثيق في الحضارة الإسلامية - قراءة لدورها في حفظ التراث الشفهي -"، أسعى من خلالها إلى توضيح عملية انتقال التراث الإسلامي من الوضع الشفهي إلى المدون، أي من الكلمة المنطوقة إلى الكلمة المكتوبة، مبينا والمنهج المتبع في ذلك.

تتمحور الإشكالية التي يطرحها البحث في: كيف ساهم التأليف والتوثيق في حفظ التراث الإسلامي؟ ولإجابة عن هذه الإشكالية يتوجب علي الإجابة عن تساؤلات فرعية منها:

- لماذا دون التراث الإسلامي في فترة متأخرة عن عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟

- ما عوامل تدوينه زمن الصحابة رضوان الله عليه أجمعين ؟

- ما سبيل التأكد من صحة التراث ؟

- ما دوره في حفظ التراث؟

للإجابة عن إشكالات البحث وتساؤلاته كان لابد من اعتماد واستخدام منهج تاريخي معين، وذلك بالرجوع إلى المادة العلمية الموثقة في مختلف أنواع المصادر التاريخية المتاحة التي تناولت الموضوع أو طرقت في أحد جوانبه، وحينما يتعذر علي الحصول على المادة التاريخية ملت إلى استقراء مختلف الأفكار واستنتاج بعض الحقائق وذلك بمقارنة النصوص التاريخية مع بعضها البعض .

02- التراث الشفهي عند المسلمين :

يمثل الحديث الشفهي⁽⁵⁾ أحد الأنواع الأساسية للتخاطب ومن مميزاته أنه يحمل طابعا آنيا محدودا في الزمان والمكان لأنه يقتضي القرب الزمني والمكاني بين المتحدث والمستمع ومن ثم فإن التخاطب ينتهي مباشرة بعد إنجاز الفعل، وإذا ما قارنا التخاطب الشفهي بالكلمة المكتوبة فإن هذه الأخيرة تتجاوز الزمان والمكان وتمتلك إمكانية البقاء لمدة طويلة، إذن فالتخاطب الشفهي يمتلك جانبا خارجيا متمثلا في الصوت وجانبا داخليا يمثل المدلول، أما الخطاب الكتابي فيتضمن كلا الجانبين⁽⁶⁾ .

إنّ العناية بالتراث الإسلامي ضرورة ملحة خاصة وأن الكثير من الناس يرفضونه جملة وتفصيلا لأنهم لم يفهموه، هذا الرفض له ما يبرره باعتبار القارئ المعاصر فاقدا للمنهجية التي اعتمدها الكتاب المتقدمين، إضافة إلى فقدانه للعلوم المساعدة، هذه العلوم التي كان يعرفها ويتقنها الكاتب قبل أن يباشر كتاباته⁽⁷⁾ .

فدراسة التراث الإسلامي ترسل إلينا كمؤرخين مسلمين بصيصا من نور الماضي، ينير لنا الطريق في حاضرتنا، ويعيننا على رسم الخطى الصحيحة في مستقبلنا، لكن ما مصير تراثنا ما لم يهتم به علماء الأمة بتدوينه وتوثيقه ؟ فهو ثمرة جهود علماء الإسلام منذ العصور الأولى لهذه الديانة، وبدراسته نكون قد عدنا إلى الماضي السحيق وكأننا نعيشه حتى وإن لم يكن حقيقة، أما التأمل فيه فيجعلنا أقدر على فهم أنفسنا وفهم ما حولنا، وبذلك نكون قادرين على حسن التصرف في الحاضر والمستقبل .

لقد عرف العرب والمسلمين نوعا من التاريخ الشفهي الذي يعتمد على رواة هم أقرب إلى القصص الذين كانوا يروون أخبار القبائل وأيامها وغزواتها وأنسابها ومعاركها وآلها وشؤونهم الاجتماعية ومآثرهم، وزادت عنايتهم بالأيام والأنساب في العهد الإسلامي⁽⁸⁾ ، فكانت كل قبيلة تحفظ نسبها ليبقى نقيًا خاليا من كل شائبة، ومخافة من اختلاط الأنساب ولتفاخر به بقية القبائل الأخرى، بل توسعوا في ذلك لتأثير عدة عوامل منها العناية بدراسة الحديث، والسيرة النبوية الشريفة، بالإضافة إلى القضايا السياسية والإدارية والاجتماعية⁽⁹⁾ .

وفي هذا الشأن قسّم بعض الباحثين⁽¹⁰⁾ اهتمام المسلمين بتدوين تراثهم إلى اتجاهين أساسيين هما: الاتجاه الإسلامي، والاتجاه القبلي - القبيلة - أو اتجاه الأيام أو الأنساب، باعتبار النسب هو المحور الذي تقوم عليه القبيلة كوحدة اجتماعية وسياسية في المناطق التي قطنها العرب والمسلمين، وكانت الأيام بمثابة الوعاء الذي تحفظ فيه القبيلة ذكريات غزواتها وتفاخر بأبطالها وشجعانها الذين قاتلوا دفاعا عنها، وهذا ما يفسر اهتمام العرب بأيامهم وأنسابهم اهتماما كبيرا، نشأ الأول بالمدينة المنورة أما الثاني في الكوفة والبصرة⁽¹¹⁾ .

إنّ المسلمون استعملوا المادة الشفهية بشكل واسع، بل إنّ جل التاريخ الإسلامي العربي المدون كان تراثا شفهيًا، فمجموعة كبيرة من المؤرخين المسلمين اعتمدوا بشكل كبير على الرواية الشفهية عند تأليفهم لمدوناتهم مثل: الطبري (ت 310هـ/

922 م) في كتابه تاريخ الطبري، وأبو الحسن المسعودي (ت 346هـ / 957 م) في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر، وابن هشام وغيرهم كثير .

03- أهمية تدوين التراث الشفهي وتوثيقه:

إنّ الكتابة لا تتمّ إلا بتوفر أدواتها كالقلم⁽¹²⁾ والقرطاس، والملاحظ عن العرب في جاهليتهم أنهم كانوا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة إلا القليل منهم، ولما ظهر الإسلام لم يكن يكتب بالعربية إلا بضعة عشرة إنسانا كلهم من الصحابة⁽¹³⁾ وسورة العلق إلى جانب بعض النصوص التاريخية تؤكد لنا ذلك: " دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشرة رجلا كلهم يكتب عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان وأبو عبيدة الجراح، وطلحة، ... " (14).

لقد مدح السلف الصالح التدوين وحثوا عليه حيث عبّروا عن أهميته في مواقف عديدة، كقول أبي جعفر الفضل بن أحمد: " الكتابة أساس الملك، وعماد المملكة، ... ، والكتابة قطب الأدب وملاك الحكمة، ولسان ناطق بالفضل، وميزان يدل على راحة العقل، والكتابة نور العلم والكتابة أفضل درجة وأرفع منزلة، ومن جهل حق الكتابة فقد وسم بوسم الغواة الجهلة وبالكتابة والكتاب قامت السياسة والرياسة " (15)، ويتجلى فضلها في حث الإسلام عليها على لسان نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم حيث قال: " قيّدوا العلم بالكتاب " .

رغم ذلك إلا أنّ الخلفاء الراشدين منعوا تدوين الكتب على المسلمين خوفا عليهم من الحضارة وحتى لا يذهب نشاطهم وبداهتهم باعتبار علومهم في صدر الإسلام كانت مقتصرة على الحفظ والمشاهدة سواء القرآن الكريم أو رواية الأحاديث النبوية، ونظرا لقلة الاختلاف، وقرب عهدهم من زمن التشريع، وسهولة المراجعة من ثقات الصحابة والتابعين فكانوا في غنى عن التدوين، وفي حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه، وحدّثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي قال: همام ، قال أحد الرواة: أحسبه قال: متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " (16)، وكان أبو بكر قد توقف عن جمعه وتدوينه وقال: " ... كيف أفعل أمرا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم... " (17).

للإشارة هذا الاعتقاد كان سائدا عهد الصحابة والتابعين، حيث تناقل المسلمون العلم بالتلقين واعتمدوا على الحفظ ولم يدونوا غير القرآن لأسباب متعددة وضّحها المأثور عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد مقتل أهل اليمامة، فغيّر رأيه حول التدوين بعدما جاءه عمر الفاروق رضي الله عنه يخبره بذلك. فخشي أن يمس القراءة والحفظ فيذهب معهم كثير من القرآن، ففي حديث أخرجه البخاري عن زيد بن ثابت قال: " أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إنّ عمر أتاني فقال: إنّ القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني لأخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعه، وإني لأرى أن يجمع القرآن، قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري فرأيت الذي رأى عمر، قال زيد: " وعمر عنده جالس لا يتكلم . فقال أبو بكر: إنك شاب عاقل ولا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن واجمعه . فقال: فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعصب وصدور الرجال . فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر، وبذلك كان رضي الله عنه أول من جمع القرآن وأول من سماه مصحفا " (18) . أما في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه توسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر⁽¹⁹⁾ والشام والعراق وفارس وإفريقية، وفيهم القراء على مختلف الأحرف التي نزل بها القرآن (سبع أحرف) فكان كل طرف ينادي بأفضلية الحرف الذي يقرأ به خاصة بين أهل الشام، والحجاز، والعراق، لذلك رأى

عثمان بن عفان توحيد المصحف على حرف واحد سماه بالمصحف العثماني تجنبا للفتنة، ومن ثم اشتغل عليه المسلمون باستنساخه⁽²⁰⁾.

إنّ المسلمون ظلوا زهاء قرن من الزمن ليس عندهم كتاب مدوّن غير القرآن مع أن الكتابة كانت شائعة آنذاك عكس ما كان عليه في صدر الإسلام . لكن بعدما توسعت الفتوحات، وانتشر الإسلام، واتسعت الأمصار، وتفرقت الصحابة في الأقطار، وحدثت الفتن، واختلفت الآراء، اضطروا إلى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن، حيث بدأ المتحدث - الفقيه أو الراوي - يتكلم والتلميذ يكتب على الرق أو القرطاس أو الكاغد⁽²¹⁾، فاشتغلوا على التدوين خاصة المغازي، وأقدم ما وصلنا كتاب وهب بن منبه صاحب الأخبار (ت 116 هـ / 734 م)⁽²²⁾، ثم ألف المسلمون في الفقه خلال القرن الثاني للهجرة " فصنف ابن جريج بمكة، وسعيد ابن أبي عروبة في البصرة⁽²³⁾، وألف أبو حنيفة الفقه والرأي في الكوفة، وصنّف الأوزاعي في الشام، ومالك بن أنس بالمدينة المنورة"⁽²⁴⁾.

يكتسي التدوين أهمية كبيرة حيث يمكن من نقل الخطاب في الزمان وذلك عن طريق الكلمة المدونة، وهذا ما لا تستطيع نقله الكلمة الشفهية، فوجد هذا حتى عند الشعوب التي لا تمتلك الكتابة - الشعوب البدائية - " فشيخ القبيلة بحاجة إلى كم كبير من المعلومات المتعلقة بالاحتياط الغذائي، وعدد الماشية، وعدد الرجال المحاربين، ووضع هذه المعارف في الذاكرة أمر غاية في الصعوبة على الإنسان"⁽²⁵⁾، وكذلك نقل الخطاب إلى مسافات بعيدة فحجمه وصعوبته قد يشكّلان عبئا ثقيلا عن ذاكرة المخبر أو الرسول، فالنصر مثلا كحدث مهم أمر إيصاله يجب أن يجد وقعا مؤثرا ولا يكون فقط بالأغاني والأهازيج التي لا تدوم طويلا، لذلك وجب البحث عن وسائل أخرى تعيش زمنا طويلا لتخليده وتحليله كل الوقائع الهامة في حياة الأجيال اللاحقة ألا وهو التدوين .

إن أعظم شاهد لفضله وأقوى دليل على رفعة شأنه - التدوين - أن الله تعالى نسبته إلى نفسه واعتدّه من وافر كرمه فقال: "... أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"⁽²⁶⁾، ولم يكتف تعالى بذلك بل بيّن شرفه بأن وصف به الحفظة الكرام من ملائكته فقال تعالى: " وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ"⁽²⁷⁾، وكذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يهتموا بالتدوين فقال: " قِيدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ"، فالتدوين يجعل الكلمة بعدما كانت معقولة باطنة، صورة محسوسة ظاهرة، فتكتمل قوة النطق وبذلك تحصل الفائدة للبعيد والقريب، ويؤمن عليها من التغيير، والتبديل، والضياح، وباعتبار العمر قصير والوقائع متسعة، ماذا عسى الإنسان أن يحفظه بقلبه أو يحصّله في ذهنه ؟ وفي هذا الشأن قال البعض نذكر منهم ذو الرمة: " أكتب شعري فالكتاب أعجب إليّ من الحفظ إن الأعرابي لينسى الكلمة قد سهرت في طلبها ليلة فيضع موضعها كلمة في وزنها لا تساويها والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام"⁽²⁸⁾.

إذن حتى نحافظ على تراثنا من التغيير والزيادة والنقصان، ونسهر على إيصاله للأجيال اللاحقة يحتاج ذلك إلى التوثيق - علم توثيق المصدر - عن طريق التدوين والكتابة⁽²⁹⁾، لأن الرواية الشفهية عرضة للتغيير والتبديل والإنسان من طبعه عرضة للنسيان، قد تخونه الذاكرة أو يخلط بين الأحداث أو ينحاز لجهة معينة، لذلك لابد من دراسة الراوي نفسه بتطبيق منهج المحدثين، أو قيام المؤرخ بفحص الروايات الشفهية وتقويمها وتلك هي الشروط التي اشتراطها المؤرخون لتحويل الرواية الشفهية إلى رواية مدوّنة باعتبار التراث الشفهي يحمل في طياته تناقضات كثيرة .

04- مراحل تدوين التراث الإسلامي ومجالاته :

إنّ تدوين التراث الإسلامي مرّ بعدة فترات منها: فترة الرواية الشفهية التي دارت في مجالس العلم بالقصور والمساجد، حيث كان الراوي أو الحاكي يروي قصته ويلقيها شفها على سامع الحاضرين، ومن حرص من السامعين على تسجيل حدث

عمل على تدوينه لنفسه، وخلال هذه المرحلة وجد الكثير من الرواة الشفهيين الذين ينقل عنهم أو يحفظ أقوالهم جمهور من العلماء مثل : عروة بن الزبير، ثم تطور خلال العصر العباسي حيث بدأ التدوين الحقيقي للتراث الإسلامي الشفهي ومن مميزاته - التدوين - ارتباطه بالكاتب نفسه، فهو الذي ينقل مباشرة من ذاكرته وليس من كتاب سابق باعتباره سامع الرواية من فلان عن فلان، وأشهر من كتب بالإسناد محمد بن سعد في الطبقات، والطبري في تاريخه، وهؤلاء هم الذين نقل عنهم بقية المؤرخين اللاحقين، وفي المرحلة الموالية قام التدوين على أساس التسلسل الزمني وجمع المواضيع المتعاقبة في كتاب واحد، حيث دَوّن وفق هذا المنهج ابن إسحاق في السيرة النبوية وامتد ذلك إلى نهاية (ق 03هـ / 09 م) وتوطد بذلك علم التاريخ الإسلامي ومنهجه، كما يظهر في مجموعة من الكتب أهمها كتاب الطبري المسمى " تاريخ الطبري " .

ويعتبر التراث الفقهي⁽³⁰⁾ للمسلمين من أكثر المواد غزارة وفائدة، حيث عني بالبحث في المسائل التفصيلية لحياتهم، فاعتنى فيما يخص المسلم ونظام حياته، وحتى يتمكن من مخاطبة المسلم وإعانتة في تحقيق مصالحه الحياتية وعبادة الله في إطار الانسجام والتوافق لا بد علينا أن نتأمل تراث الأقدمين أو ما يصطلح عليه بالتاريخ الإسلامي، وهو تاريخ الشعوب والدول الإسلامية منذ بدء الإسلام حتى عصرنا الحالي، ودراسته تكتسي أهمية كبيرة يقول ابن الأثير: "... إذا وقفوا على ما في وقائع التاريخ من سيرة أهل الجور والعدوان وما ترتب عليها من فساد وخراب وهلاك، استقبحوها وأعرضوا عنها . وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها وما فيها من الذكر الجميل بعد ذهابهم وأن بلادهم عمّرت، وأمواهم درّت استحسنا ورغبوا فيه وثابروا عليه ..."⁽³¹⁾، إضافة إلى ما دَوّنه المجتهدون في مجال اختصاصهم وخاصة مع أوائل القرن الثاني هجري (02هـ / 08م) إلى غاية منتصف القرن الرابع الهجري (04هـ / 10م)، حيث نما الفقه وازدهر وكثرت المسائل وبرز الأئمة العظماء مثل: أبو حنيفة النعمان، والإمام مالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل وغيرهم، وكان لكل واحد منهم أصوله ونظرياته لمعالجة قضايا الفقه الإسلامي.

إن التدوين في البلاد الإسلامية اهتم بالنص الديني - القرآن الكريم والسيرة النبوية -، والفقه والتاريخ الإسلامي، وقد ازدهرت هذه الدراسات خاصة بعد النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، الثامن ميلادي، حيث ظهر أول كتاب منظم لدراسة السيرة النبوية وهو كتاب محمد ابن إسحاق (151هـ / 761 م)، ثم تطور الاهتمام وشمل أحداث التاريخ الإسلامي وأخبار الجاهلية والعرب قبل الإسلام وتاريخ الأنبياء السابقين⁽³²⁾.

يعتبر القرآن الكريم أول كتاب دَوّنه المسلمون، حيث تردّدوا في تدوينه في البداية، لأن الملحنين نسبوا كلامه صلى الله عليه وسلم إلى الاقتباس من كتب المتقدمين⁽³³⁾، كما أخبر تعالى عن ذلك بقوله: " وَقَالُوا أَأُطِيعُ الْأَوَّلِينَ اُكْتُبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا"⁽³⁴⁾، بيد أن مقتل أكثر الحفاظ في حروب الردة وحروب المتنبيين، دفع المسلمين إلى تدوين تراثهم خوفا عليه من الضياع والنسيان⁽³⁵⁾، وأما الحديث النبوي فإن التردد كان أكثر حول تدوينه، حيث امتنع المسلمون على تدوينه خوفا من اختلاطه بالقرآن، وقد أمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن لا يحدثوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وسار الفاروق رضي الله على نهجه.

لكن مع نشأة الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، واختلاف المسلمون حول الخلافة، وانصراف كل طرف إلى استخراج الأحاديث المؤيدة لدعواه، وتسابقهم في وضع الأحاديث أثناء البحث عن شروط الخلافة⁽³⁶⁾ ومع تفشي ظاهرة اختلاف الأحاديث، اتجهوا للبحث عن منهج يصون ويحفظ التراث - الحديث - خاصة بعدما هدأت الفتنة، حيث عمد المسلمون إلى التحقيق وفحص الروايات ودراسة صدق الرواة، وفرّقوا بين الحديث الصحيح، والحديث الموضوع، فألّفوا كتباً كثيرة في درجات الأحاديث، فميّزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتب " الصحيح، الحسن، الضعيف، والمرسل، المنقطع،

الشاذ، الغريب، ... " وغير ذلك من الألقاب المتداولة⁽³⁷⁾، كما اهتموا بالإسناد مثل قولهم: "حدثنا فلان عن فلان أنه سمع فلان يقول كذا وكذا"، هذا ما أدى إلى ظهور طبقة من المحدثين الذين دونوا الحديث في الصحاح مثل محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ / 869م) إمام المحدثين في عصره ألف كتابه الصحيح "صحيح البخاري"، ثم ألف مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت 261هـ / 874م) "صحيح مسلم"، ثم ظهر بعدهما طبقة أخرى من المحدثين مثل: أبو داود (ت 275هـ / 888م)، والترمذي (ت 279هـ / 892م)، والنسائي (ت 303هـ / 915م)، والدارقطني (ت 385هـ / 995م)⁽³⁸⁾، وبذلك تكاثرت الأحاديث وأصبحت تعد بمئات الألوف .

والملاحظ على تدوين الحديث أنه نشط خلال منتصف القرن (02 هـ / 08 م) ، فكان أول من كتب في علم الحديث⁽³⁹⁾ محمد بن شهاب الزهري رحمه الله (ت 124هـ / 741م) وأنّ أول من وضع الكتب أتى بعده، وبذلك فإن الحديث لم يكتب على عهد الصحابة⁽⁴⁰⁾، وإنما مر بثلاث مراحل .

كانت المرحلة الأولى مع نهاية القرن (01هـ / 07م) حين ذهبت الخلافة للإمام عمر بن عبد العزيز أو كما يسمى خامس الخلفاء الراشدين فهده الله إلى جمعه، فكتب إلى بعض علماء الأمصار بجمع الحديث الشريف، ويعد هذا أول توجه رسمي في الدولة الإسلامية لتدوين السنة رسمياً، وقام الإمام ابن شهاب الزهري بجمع ما توفر لديه من أحاديث وسنن كما ذكرنا سابقاً. وبذلك انتقلت حماسة تدوين الحديث إلى علماء الأمة فتنافسوا في جمعه، وأشهر من دون الحديث في ذلك الوقت عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، ومحمد ابن إسحاق في مكة، ومالك ابن أنس في المدينة المنورة، وسفيان الثوري بالكوفة، والأوزاعي في الشام، وابن أبي عروبة بالبصرة، فصنّف ابن إسحاق في المغازي، وصنّف أبو حنيفة في الفقه والرأي، وبذلك كثر تدوين العلم فدوّنت كتب العربية، واللغة، والتاريخ⁽⁴¹⁾.

أما المرحلة الثانية لتدوينها فكانت أيام الدولة العباسية بأمر من الخليفة أبي جعفر المنصور⁽⁴²⁾ حين طلب من مالك بن أنس⁽⁴³⁾ أن يكتب كتاباً يوطئ "يسر" للناس به السنة النبوية الشريفة وسماه الموطأ⁽⁴⁴⁾.

أما التدوين الثالث للسنة فكان خلال (ق 03 هـ / 09 م)، فازدهرت عملية تدوين السنة وتنوعت المؤلفات، فخلال القرن الهجري الأول والثاني اهتم بتدوينها وجمعها فقط، أما خلال القرن الثالث الهجري فقد تناول العلماء السنة من جهتين هما: الجمع والتدوين والتصنيف على المسانيد⁽⁴⁵⁾ والجوامع⁽⁴⁶⁾، والسنن⁽⁴⁷⁾، مثل: مسند⁽⁴⁸⁾ الإمام أحمد بن حنبل⁽⁴⁹⁾، وبذلك لقي الحديث عناية واهتماماً عظيماً من أبناء ذلك العصر الذين نقلوه بأمانة وإخلاص إلى الجيل الذي تلاهم، وأدت الأجيال المتلاحقة هذه الأمانة حتى وصلت إلينا في أمهات الكتب الصحيحة معتمدين في ذلك على منهج التوثيق القائم على فحص الروايات الشفهية قبل تدوينها، وكذا التأكد من صدق الراوي وأمانته مثل ما سئري لاحقاً مع الإمام البخاري لما رفض أخذ الرواية عن الرجل الذي كذب على بهيمته، ناهيك عن الاستعانة بمجموعة من العلوم المساعدة التي ذكرناها سابقاً (علم الرجال، وعلم الأسانيد، علم مصطلح الحديث، علم النحو،).

ولعل من أبرز المذاهب الفقهية التي لاقت اهتماماً كبيراً في مجال التدوين والتوثيق المذهب المالكي الذي انتشر في عديد الأمصار الإسلامية: (مصر، والأندلس، والغرب الإسلامي ... " بفضل تلامذة الإمام مالك الكثر ونذكر منهم: علي بن زياد التونسي (ت 183هـ / 799م)⁽⁵⁰⁾، والبهلول بن راشد القيرواني (ت 186هـ / 802م)، وأسد بن الفرات (ت 213هـ / 828م)، وشبّطون بن زياد بن عبد الرحمن القرطبي (ت 193هـ / 808م)، ومحمد بن عبيد الله الأبهري ببغداد شارح المختصر الكبير والصغير لابن عبد الحكم (ت 375هـ / 958م)، وأبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد (ت 520هـ / 1126م)⁽⁵¹⁾، حتى صار لمذهب الإمام مالك علماء في هذه الأمصار قاموا بحفظه وخدمته وتدوينه اعتماداً على موطأ

الإمام مالك⁽⁵²⁾، وبذلك ظهرت مجموعة من التصنيفات التي حفظت التراث الفقهي المالكي بداية مع أصحاب الإمام وتلاميذته من بعده الذين استودعوا هذه الروايات والأقوال في كتب شرحوها ودونوها للأجيال عبر مختلف العصور، منها كتاب المدونة المسمى كذلك بـ: "الأم أو المختلطة" وهو كتاب جمع ألفوا من المسائل لسحنون بن سعيد من رواية عبد الرحمن بن القاسم⁽⁵³⁾ عن الإمام مالك، عكف عليها أهل القيروان وتركوا الأسدية التي دونها القاضي أسد بن الفرات عن ابن القاسم⁽⁵⁴⁾، إضافة إلى كتاب "الواضحة" التي دونها عبد الملك بن حبيب وجمع رواياته عن ابن القاسم⁽⁵⁵⁾، وكذلك تصنيف العتي تلميذ ابن حبيب لكتابه "العتبية" التي لاقت قبولا عند العلماء فهجروا الواضحة واعتمدوا عليها فشرحوها، أما خلال القرن (404 هـ / 10 م) ظهر مالك الصغير العالم ابن أبي زيد القيرواني فقام بجمع ما في المدونة، والواضحة، والعتبية وجعل ذلك في كتاب سماه "النوادر"⁽⁵⁶⁾ وغيرهم كثر، هذا ناهيك عن دور العلماء الآخرين في حفظ تراث بقية المذاهب الأخرى كالمذهب الشافعي، حيث صنف الإمام النووي كتابه المشهور "تهذيب الأسماء واللغات" فقال: "خصّصت هذه الكتب بالتصنيف، لأن الخمسة الأولى مشهورة بين أصحابنا يتداولونها أكثر تداول، وهي سائرة في كل الأمصار، مشهورة للخواص والمبتدئين في كل الأقطار"⁽⁵⁷⁾

- نتائج البحث:-

من خلال هذه الدراسة المتواضعة يمكننا الخروج بالنتائج التالية:

- إنَّ للتدوين فضل كبير، حيث لعب دورا في حفظ التراث الإسلامي ونشره في كامل البلاد الإسلامية، إضافة إلى دوره في حفظ مجمل التاريخ الإسلامي الذي وثق ودون ووصل إلينا مخطوطا مصانا بفضل جهود علماء الأمة، وبذلك ترك لنا كما هائلا من مصادر التراث مصانة وموثقة، منها كتاب الله المحفوظ من فوق سبع سموات - القرآن الكريم -، والسيرة النبوية من الضياع والزيادة، وبقية كتب المذاهب الفقهية الأخرى وفي مقدمتها كتب المذهب المالكي .
- لا غرابة بالافتخار الموجود عند المسلمين بكتبهم لأنها محفوظة عليهم وواردة إليهم بالأسانيد عكس كتب الديانات الأخرى المحرفة، كالتوراة مثلا لها سند واحد فقط آخر شخص بينه وبين موسى عليه السلام ألف سنة أو أكثر⁽⁵⁸⁾، أما السند عندنا فوصل به الحال إلى أن رحل البخاري لطلب الحديث فذهب إلى شخص للرواية فوجده ممسكا بعشب في يده يحاول أن يجذب به بهيمته، فلما جاءت إليه أمسك بها ورمى العشب فتركه البخاري ولم يحدث عنه وقال: "قد كذبت عليها فلم يأمنه"⁽⁵⁹⁾ .
- لا عجب إن كثر المؤلفون، وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم، وكان منهم الملوك والأمراء والوزراء والأغنياء والفقراء، وفيهم العرب والفرس واليهود والروم، وغيرهم من الملل الخاضعة للإسلام في أنحاء العالم، وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما أنتجه الإنسان وبذلك تعددت تصنيفهم وأصبحت لا تعد ولا تحصى .

- الإحالات:

- ¹ - النحو : الطريق والجهة والقصد يكون ظرفا واسما، ومنه نحو العربية، الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817هـ / 1414م)، القاموس المحيط، باب الواو، فصل النون، ضبط وتوثيق يوسف الشيخ، محمد البقاعي، إشراف مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2006 م، ص 1203.
- ² - علي جمعة محمد، المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط 04، 2012 م، ص 16.
- ³ - تقول العرب وثق أي من وثق به، ثقة وموثقا : ائتمنه والوثيق المحكم، أو أخذ بالوثيقة في أمره أي بالثقة، ووثقه توثيقا أي أحكمه وفلانا قال فيه إنه ثقة، الفيروز آبادي، المصدر السابق، باب القاف، فصل الواو، ص، 834، 835.
- ⁴ - علي جمعة محمد، المرجع السابق، ص 17.
- ⁵ - التراث الشفهي هو انتقال غير مادي للمذاهب والممارسات الدينية والأخلاقية المتوارثة من عصر لآخر بواسطة الكلمة المنطوقة، "إن التراث الشفهي له صلة وثيقة بالتاريخ، وذلك أن الأول يعد مرآة المرحلة الحضارية التي يعيشها الناس وهو يعبر عن أفكارهم وعواطفهم فالتاريخ المدون كما يرى البعض أنه ولد في أحضان التراث الشفهي"، سعود بن ذهلول آل سعود، تاريخ ملوك آل سعود، مطابع المدينة، الرياض، 1982م، ج 01، ص 15.
- ⁶ - يوهانس فريد ريش، تاريخ الكتابة، ترجمة الدكتور سليمان أحمد الظاهر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سورية، 2004م، ص 31.
- ⁷ - علي جمعة محمد، المرجع السابق، ص 24.
- ⁸ - عبد الواحد ذنون طه، دراسات في تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 01، دون تاريخ، ص 05.
- ⁵ - عبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص 49.
- ¹⁰ - راجع عبد العزيز الدوري في كتابه بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب.
- ¹¹ - دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ إبان العصر الأموي، ألقى هذا البحث في المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثالثة تشرين الأول التي عقدت في عمان من 02 - / 07 ربيع الأول، 1048هـ / 24 - 29 تشرين الأول 1987 م، وطبع ضمن محاضرة هذه الندوة القسم العربي المجلد الأول، والبحث موجود في كتاب تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي لعبد الواحد ذنون طه، المرجع السابق، ص - ص، 49 - 79.
- ¹² - كانت العرب تصنع القلم من القصب نحو ما يفعلها طلبة الزوايا اليوم وأما الحبر كانوا يصنعونه من مسحوق الفحم، والكتابة إحدى الصنائع فلا بد فيها من الأمور الأربعة "فمادتها الألفاظ التي تخيلها الكاتب وتصور من ضم بعضها إلى بعض والخط الذي يخطه القلم وتصير بعدما كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة آلتها القلم، القلقشندي الشيخ أبي العباس أحمد، كتاب صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ج 01، ص 51.
- ¹³ - ص 36، جورج زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار نوبليس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 01، 2004 م، ج 02، ص 32.
- ¹³ - مبارك بشير، المدارس التعليمية في المغرب الأوسط على العهد الزياني 633 - 692 هـ / 1235 - 1554 م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة معسكر، ص 22.
- ¹⁴ - البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي، فتوح البلدان، شركة طبع الكتب العربية، مصر، الطبعة الأولى، 1901 م، ص 477.
- ¹⁵ - القلقشندي، المصدر السابق، ص 37.
- ¹⁶ - حديث رواه الإمام مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، ج 18، ص 129.
- ¹⁷ - السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر توفيق (911هـ / 1505م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق أحمد إبراهيم زهرة، سعيد بن أحمد العبدروسي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 2003م، ص 62.
- ¹⁸ - السيوطي، جلال الدين المصدر السابق، ص 62 - أحمد معمر العسيري، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام تاريخ ما قبل الإسلام إلى عصرنا الحاضر، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الدمام، السعودية، ط 01، 1996م، ص 106.

- 19- كانت تسمى قبل الطوفان جزلة ثم سميت مصر، اختلف في معنى تسميتها بمصر ف قيل إنها سميت بذلك نسبة إلى مركايل بن دوايل بن عرياب وهو مصر الأول وقيل سميت نسبة لمصر الثاني وهو مصرام بن يعراوش الجبار بن مصرم الأول، وقيل نسبة إلى مصر الثالث وهو مصر بن بنصر بن حام بن نوح، ومصر اسم أعجمي لا ينصرف، وقال آخرون هي اسم عربي وهي مدينة منبوعة على النيل، ومصر في كلام العرب تعني الحد بين الأرضين، فيقال: اشترت الدار بمصورها أي بحدودها، وقيل سميت مصر بمصر لمصير الناس إليها واجتماعهم بها، فجمع المصر من البلدان أمصار، ينظر: المقرئ تقي الدين أبو العباس أحمد (ت 845هـ / 1441م)، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، دون تاريخ، ج 01، ص - ص، 19 - 21 .
- 20- جورج زيدان، المرجع السابق، ج 03، ص 108 ، 109 .
- 21- المرجع نفسه، ص 95 .
- 22- نفسه، ص 96 .
- 23- بنيت البصرة في الخلافة العمرية، وهي تقع على نهر يقال له نهر الفيص، ينظر، ابن سعيد المغربي، أبي الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه، إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 02، 1982 م، ص 159 .
- 24- جورج زيدان، المرجع السابق، ص 97 .
- 25- يوهانس فردريش، المرجع السابق، ص 33 .
- 26- سورة العلق، الآية رقم (1- 5) .
- 27- سورة الانفطار، الآية رقم (10 - 11) .
- 28- القلقشندي، المصدر السابق، ج 01، ص 36 .
- 29- الكتابة في اللغة مصدرها كتب، حيث يقال: كتب يكتب كتباً وكتاباً وكتابة ومكتبة فهو كاتب، ومعناها الجمع، ومن هذا يقال تكتب القوم إذا اجتمعوا ومن ثم سمي الخط كتابة لجمع الحروف لبعضها البعض، أما إصلاحاً فقد عرفها البعض بأنها صناعة روحانية، وفسر الروحانية فيها بالأنفاظ التي يتخيلها الكاتب في أوهامه ويصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه، التي يعود ظهورها إلى رحلة طويلة الأمد عبر الأزمان فقد ظهرت بعض الخطوط وازدهرت مع طول الزمن ودامت سنين بل قرون وفي نفس الوقت لم تدم خطوطاً أخرى إلا فترة زمن اختراعه، القلقشندي، المصدر السابق، ص 09 - آن زالي - أي برثييه، تاريخ الخط العربي وغيره من الخطوط العالمية، ترجمة سليمان العيسى، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعة، دمشق، سورية، ط 01، 2004م، ص 09 .
- 30- إن الفقه يعني معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحذر والندب والكراهة والإباحة، ومصدرها الكتاب والسنة، فالأحكام المستخرجة من الأدلة تسمى فقهاً، فقد استخرجها السلف رغم اختلافاتهم، أنظر: ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص 427 ، 428 .
- 31- ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي المعروف ، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، 1997م، ج 01، ص 08 .
- 32- عز الدين ابن الأثير، المصدر السابق، ص 06 .
- 33- القلقشندي، المصدر السابق، ج 01، ص 42 .
- 34- سورة الفرقان، الآية رقم (05 - 06) .
- 35- أحمد معمور العسيري، المرجع السابق، ص 08 .
- 36- جورج زيدان، المرجع السابق، ج 03، ص 117 ، 118 .
- 37- نفسه، ص 119 .
- 38- نفسه، ص 121 .
- 39- هو إسناد الحديث - السنة - إلى صاحبها والكلام في الرواة والناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم، ليوثق في أخبارهم، ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص 418 .
- 40- محمد حسن نور الدين إسماعيل، المرجع السابق، ص 14 .

- 41- السيوطي جلال الدين ، المصدر السابق، ص 202 - محمد حسن نور الدين إسماعيل، نفسه، ص 19 .
- 42- المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أمه سلامة البربرية ولد سنة (95 هـ / 713 م) لقب بأبي الدوانيق، لمحاسبته العمال والصناع على الدوانيق، السيوطي جلال الدين ، نفسه، ص 201، 200 .
- 43- مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمر بن الحارث بن غيمان بن حثيل بن عمرو بن الحارث الأصبحي نسبة إلى أصبح وهو من حمير من سبأ، إمام دار الهجرة ولد قبل انتهاء القرن (01 هـ / 07 م) ومات قبل نهاية القرن (02 هـ / 08 م) بنحو عشرون سنة، عاش حوالي سبعة وثمانين سنة، (93 - 179 هـ / 711 - 795 م)، الموطأ، برواياته (ابن الليث، التعني، أبي مصعب الزهري، ابن بكير، ابن القاسم، ابن زياد)، حققه وضبط نصوصه وخرج أحاديثه وآثاره، أبو أسامة: سليم بن عبيد الهلالي السلفي، المجلد الأول، مجموعة الفرقان التجارية، 2003 - فاتيغا موسى، أصول فقه الإمام مالك أدلته العقلية، المجلد الأول، دار التدمرية، توزيع دار ابن حزم، ط 01، 2007، ص 27 .
- 44- محمد حسن نور الدين إسماعيل، تدوين السنة، مفهوم السنة، خصائصها - تدوينها - مدارس الحديث، مكتبة الألوكة، 2006 م ، ص 19 .
- 45- المسانيد هي الكتب الحديثة التي رتبها مؤلفوها على ما رواه كل صحابي على حدة . - محمد حسن نور الدين، المرجع السابق، ص 20 .
- 46- الجوامع هي الكتب التي اشتملت على جميع أنواع الحديث في العقائد والفقه والآداب والتفسير، - نفسه، نفس الصفحة .
- 47- هي الكتب التي رتب على الأبواب الفقهية، كسنان أبي داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجة، - نفسه، نفس الصفحة .
- 48- محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 05، دون تاريخ، ص 62 .
- 49- أحمد بن حنبل الشيباني (164 هـ - 780 م / 241 هـ - 855 م) كان من أئمة الحديث ولم يكن بالفقيه الصرف، - أحمد بكير محمود، المدرسة الظاهرية بالشرق والمغرب، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 01، 1990م، ص 15
- 50- أبو الحسن علي بن زياد العبسي ولد بطرابلس الغرب أخذ عن أبي عمران التونسي وسفيان الثوري والليث بن سعد روى عن مالك الموطأ، مالك بن أنس، المصدر السابق، ص 20 .
- 51- علي جمعة محمد، المرجع السابق، ص 189 .
- 52- نفسه، ص 185، 186 .
- 53- أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة المصري، ولد سنة (132 هـ / 749 م)، أصله من الرملة بفلسطين أخذ العلم عن مجموعة منهم بكر بن مضر، سعد بن عبد الله المعافري وغيرهم كثير، لازم الإمام مالك عشرون سنة وتفقه عليه وكتب عنه علما كثيرا، وهو أول من حمل الموطأ إلى مصر توفي سنة (191 هـ / 806 م)، مالك بن أنس، المصدر السابق، ص 21 .
- 54- علي جمعة محمد، المرجع السابق، ص 209 .
- 55- المرجع نفسه، ص 210 .
- 56- نفسه، ص 211 .
- 57- نفسه، ص 53، 54 .
- 58- نفسه، ص 18 .
- 59- نفسه، ص 19 .